من أبطال البحرية الجزائرية : الرايس حميدو
1770 -1815م

ترجمة وتقديم وتعليق
أ. علي تابليت -جامعة الجزائر

التعريف بالكاتب: Albert Devoulx 1826-1876

من مواليد مرسيليا، محافظ الأرشيف باللغة العربية بالجزائر ومصلحة تسجيل الأملاك العمومية ، عضو في الجمعية التاريخية الجزائرية ، له العديد من المؤلفات التاريخية حول الجزائر، من كتب ومقالات وهذه البعض منها:

Tacherifat. Alger, 1852. Habous. alger, 1853. Coopération de la Régence d'Alger à la guerre de l'indépendance grecque. Alger, 1858.Le Raîs Hamidou. Alger, 1859. Le Livre des signaux de la flotte algérienne. Alger, 1867. La Marine de la Régence d'Alger, 1869.Le Registre des prises maritimes. Alger, 1872

Abstract

Account of Rîs Hamidou :The Late Algerian Admiral

Raîs Hamidou , The Admiral of Algiers , who fell Gallantly defending his ship, in the late action with commodore Decatur. Raîs Hamidou, was perhaps about seventeen when he made his first cruise, and soon became distinguished spirit. By rapid steps he attained to the command of a frigate, and in the year 1801 took a Portuguese frigate of equal or superior force to his own. In the year of 1810, we find Hamidou admiral of Algiers ; but how he got to be so, history does not tell.

Hamidou was killed in action with a U.S. squadron in 1815 and on 27 and 28 August 1816 an Anglo-Dutch fleet under Lord Exmouth carried out an intensive bombardment of Algiers, but already on 4 September sixteen Algerian privateers were back at sea.

Hamidou, after being long the Hero of the mediterranean, at last, had the ill luck to fall in with the American squadron under commodore Stephen Decatur. Finding it impossible to escape, he determined to defend his ship in such a manner as to justify the reputation he had acquired. His ship was taken ; but Raîs Hamidou was killed before she surrended.and it is said died as he lived,

without ever having struck his flag to an enemy. In his person, he was of a middle size, well formed and active, with an intelligent countenance, and keen expressive eye. His manners were easy and agreeable, and his disposition partook much of that of a sailor all over the world.

Key-Words: Raîs Hamidou, corsair, Piracy, Commodore, squadron, Decatur, Algiers, Cap de Gate, frigate, Portugaise.

تقديم

بدأت الحرب مع الجزائر في 20 ماي 1815، عندما أقلعت أول قطعة بحرية أمريكية من بوستون إلى المتوسط ، تحت قيادة بطل الحرب مع طرابلس الغرب ،(1801 -1805م)، ستيفن ديكاتور، Stephen Decatutومعه ويليام شالر، Wiiliam Shaler كقنصل مقيم في الجزائرمستقبلا. وتتكون القطعة البحرية من 10 سفن وليس كما ذكر Albert Devoulx تتشكل من 3 فراقط، و2 من sloops و3 Brigs و2 shooners وتحمل سفينة Guerriere علم قيادة القطعة البحرية وعلى متنها 50 مدفعا . وبلغ عدد مدافع القطعة 170 بالمقارنة مع ثلاث سفن لحميدو. وصلت القطعة إلى جبل طارق في 15 جوان، وفي 17 منه كانت المعركة الغير المتكافئة ، وكانت السفن الأمريكية حاملة العلم البريطاني لإيهام السفن الجزائرية ، وفجأة رفعت إحدى السفن الأمريكية علما أمريكيا خطأ ، فعرف حميدو ومساعده الخديعة لكن فات الأوان.وبدأت الفرقاطة Constellation و Hawk ترمي النيران على سفينة حميدو حتى استسلمت بعد إصابة قائدها، حميدو، الذي أصيب بشظية تزن 25 رطلا من البارود وقسمته إلى نصفين وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة طلب من مساعده أن ترمى جثته في البحر حتى لا يمسكها الكفار.نقلت سفينة حميدو إلى قرطجنة، بإسبانيا. من قبل السفينة Macedonian وعلى متنها 400 أسير جزائري.

وفي 19 جوان 1815 م ، تابعت سفن ديكاتور سنبك جزائري المسمى Estedio وقتل العديد من بحارتها ووصل الأمريكيون إلى الجزائر يوم 28 جوان ، وأملوا شروطهم على الداي عمر في غياب الأسطول الجزائري في شرق البحر المتوسط ، مما جعل عمر باشا يقبل بشروط ديكاتور ووقع معاهدة سلم وأطلق الأسرى الأمريكان ، وقدم تعويضا لأمريكا بقيمة 10.000 دولار. أعيدت سفينة حميدو للجزائر ودمرت في الهجوم البريطاني -الهولندي على الجزائر في 27 أوت 1816م ، في ميناء الجزائر وتوجد راية حميدو في متحف البحرية الأمريكية بواشنطن.

استقبل الداي عمر القنصل البريطاني معاتبا إياه بقوله: " وعدتموني بتنظيف البحار من أسطولهم ' الولايات المتحدة ' في ستة أشهر، والآن يعلنون الحرب معي بسفنكم التي أخذوها منكم ."

وقد قيلت أشعار التغني ببطولات حميدو بالعربية وترجمت نحو الإيطالية والفرنسية ، كما قيلت قصائد شعرية أمريكية حول انتصارهم على حميدو والجزائر ونشرتها في مقال بالإنجليزية حول حميدو وذلك في مشاركة لي بمؤتمر عقد في تركيا في ديسمبر 2016م بمناسبة مرور ستة قرون على الجزائر العثمانية.

تعليق

فالقراءة المتأنية فيما ورد عما كتبه الكاتب توحي بالفكر العرقي والتهجم على المسلمين ووصفهم بأوصاف لاتليق

بالباحث، فهو يذكر أن القراصنة الجزائريين جهلة لا يعرفون قراءة الخرائط البحرية وأنهم غير قادرين على الابتعاد عن السواحل ولا يذهبون بعيدا بسبب جهلهم للبحرية وأن هدفهم الأسمى هو ملاحقة الكفار ولم يقل المسيحيين ، وهم بدورهم يطلقون على المسلمين كلمة الكفار.نقول للكاتب أن الجزائريين كانوا يعرفون البحر والمحيط والدليل على ذلك وصولهم في حملتين إلى إيرلندة وإيسلندة سنتي 1627م و 1631م وهي معروفة في تاريخ البحرية الجزائرية أما الخرائط فقد أجاب الكاتب بنفسه عما وقع للرايس حميدو في القالة ، ثم أنه لا ننسى تواجد الأسطول الجزائري من حين لآخر في الجنوب الفرنسي وما استولت عليه البحرية الجزائرية من سفن بريطانية وهولندية وسويدية ودانماركية وغيرها من بقية البلدان الأوربية وأخيرا على القارئ الجزائري أن يحسن قراءة الوثائق الأوربية مهما كان مصدرها.

النص المترجم:

قبل تقديم النص المترجم لابد من التعريف بإيجاز بالرايس حميدو

الإسم: حميدو بن علي

الولادة :1770 م

الوفاة : 17 جوان 1815م

مكان الوفاة: Cap de gate, ، Espagne

إسم الشهرة في الأدب الأمريكي حميدا (بسكون الحاء) أو أميدون

النشاط : قرصان

سفنه المفضلة : مشودة ، البرتغالية

الرتبة ، متمهن بحري في البداية ثم قبطان والبعض من الكتابات الغربية تسميه أميرال

" **إن** القرصان الذي اشتهر باسم الرايس حميدو، هو من أصل جزائري ، ولد بضواحي الجزائر العاصمة سنة 1770 م، ولم يكن هناك ، بالتأكيد ، ما يوحي بأن حياته ستكون مليئة بالمغامرات. فأبوه علي ، كان قد هيأه لممارسة حرفة الخياطة ، وما أن بلغ حميدو سن 10 أو 12 من العمر حتى أخذه إلى أشهر مفصلي " البذلات " في الجزائر لتعلم الحرفة. لكن متمهننا غالبا ما كان يهجر ورشة الخياطة ، حسب بعض الروايات المنتشرة ،

ليقصد بعض القراصنة العائدين من الرحلات الخطرة للإصغاء إليهم وهم يسردون مغامراتهم (المخاطر التي واجهوها).

ولما كان حميدو يحترق شوقا إلى أن يحذو حذو أولئك الذين كانت مخيلته الفتية والحذقة تصورهم له على أنهم أبطال ، ونظرا للكره الشديد الذي يكنه في صدره إزاء الكفار، وهو الكره الذي كان يعتبر القيمة المحورية للمقاتلين المسلمين ، ونظرا كذلك للتعطش الشديد للجهاد الذي كان بمثابة الدافع الرئيسي للبحارين الجزائريين ، قرر حميدو بكل عزم وثبات هجر مشاهير الخياطة ليشتغل نوتيا على متن سفينة أحد القراصنة الذين كان عددهم كثيرا في مدينة الجزائر في تلك الفترة ، وكان حميدو يقول إن كل ما يريده من وراء صعوده صواري السفينة هو استرخاء ركبتيه اللتين أصابهما الفشل بفعل وضعيتهما غير المريحة أثناء قيامه بعمل الخياطة.

وفيما بعد ، تلقى بطلنا التدريب اللازم ، ولم يكن يستثنى الرياس والضباط من ذلك الجهل الفظيع والمألوف الذي يميز البلدان الإسلامية ، ولم يكن زادهم من العلم ثقيلا أو مزعجا بل كان في أدنى مستوى. كما لم يكونوا في حاجة –إطلاقا - إلى الاطلاع على الكتب بل وكانوا يتركون ، بكل استخفاف ، مهمة تعلم القراءة والكتابة المملة لكتابهم (الخوجة). وكانوا يكتفون بمعرفة اتجاه الرياح ونوعها وتحديد موقعهم اعتمادا على

"التقدير" ، وبعبارة واحدة ، امتلاك بعض المفاهيم العملية والأساسية الضرورية التي تساعدهم على ألا يتيهوا في المغامرات بمجرد الابتعاد عن السواحل وتعذر رؤيتها. وزادة على ذلك ، لم يكونوا أبدا يبتعدون كثيرا عن اليابسة ولم يخرجوا من البحر الأبيض المتوسط ، وتجرأ بعض الرياس على القيام برحلة إلى المحيط لكن سرعان ما عادوا إلى المضيق ودخلوا مناطق أكثر معرفة بالنسبة إليهم وسهلة الاستغلال.

قدر باي وهران ، الأول، جدارة حميدو حق قدرها وتنبأ بالمستقبل المجيد الذي ينتظره. في بداية الأمر، منحه أحد سنابكه، مكافأة له على النجاح الذي لم تصلنا بشأنه أية رواية على الإطلاق ، أسند له فيما بعد رئاسة قيادة قواته البحرية التي كانت تتشكل من اثنين أو ثلاثة سنابك وعدد مماثل من القوارب.

وذات يوم، وبينما كانت الفرقة الوهرانية المتكونة من ثلاثة سنابك تقتفي آثار الكفار ، فوجئت ، في مياه جزر البليار ، بمقابلة سفينتين حربيتين من جنوة. كانت المواجهة غير متكافئة ، ولكن ، وبدلا من البحث عن النجاة غير المؤكدة المتمثلة في الهروب ، قام حميدو بمهاجمة العدو وأجبر الجنويين على الابتعاد دون أن يحرزوا نصرا كان بإمكانهم تحقيقه بسهولة نظرا لعدم تكافؤ قوات الطرفين. وكان لتلك الحادثة صدى عميق في الغرب وأصبح يجري الحديث عنها حتى في الجزائر التي كانت ،مع ذلك

تزخر بعدد هائل من الرياس المقدامين والجسورين. حدث هذا في حوالي 1795 م، كان الباشا حسن بن حسين يحكم الجزائر آنذاك. وسبق له أن عمل قرصانا وقتا ما في شبابه، ثم تقلد مهام وكيل الحرج ، أو وزير للبحرية قبل أن يبلغ قمة هرم السلطة. وكان يقدر كثيرا أهل الشجاعة ويولي البحرية كل الرعاية.

سارع حسن إلى استقدام حميدو لديه وأسند له قيادة سنبك جميل مسلح ب 12 مدفع يركبه قرابة الستين قرصانا من القراصنة المقدامين. وإدراكا منه للأمل الذي وضعه فيه، حقق الرئيس الشاب أثناء أسفاره الأولى ، عددا من الغنائم كانت كفيلة بإثارة البهجة في نفوس المؤمنين وملء جيوبهم بالمال. لكن حدثا أليما كاد أن يحطم وإلى الأبد حياة حافلة بالأمجاد بالنسبة للبحرية الجزائرية.

ذات يوم ، كان حميدو متواجدا با لقالة حين اندلعت رياح عاتية في عرض البحر.لم يكن المرفأ جيدا ، وأصيب السنبك المسكين بالتعب الشديد. قام حميدو بكل الأعمال اللازمة لإرساء السنبك ، فربط كوابله (حباله) كليا بالمرفأ ، ثم انتظر الحدث الذي مافتئ أن وقع : انقطع الحبل الأخير، وحينها حملت العاصفة الهوجاء السنبك الذي راح يرتطم بصخور الشاطئ .ونجا الطاقم لكن الرئيس لم يكن مطمئنا لما قد يترتب على هذه الكارثة من

عواقب، ورأى أنه من الحذر بمكان انتظار زوال الغضب الذي قد ينتاب حسن عند تلقيه خبر فقدان سفينته.

وهكذا ، سلك حميدو أطول طريق للعودة إلى الجزائر، وقيل ذلك ، ذهب إلى تونس ثم إلى قسنطينة حيث مكث بعضا من الوقت ، لكن باي هذه المدينة الذي كان ، بدون شك قد أخبر حكومته بوجوده هناك سرعان ما أخبر حميدو بتلقيه الأمر بنقله إلى الجزائر تحت رعاية باش السيار (رئيس البريد) الذي كان يعمل عنده. لكن باش سيار المذكور كان رجلا قاسي الطبع وشرطيا محنكا تستحيل مخادعته ، وخادما طيعا لا يمكن إرشاؤه أو إثارة عطفه. حينئذ ، أدرك حميدو أنه كان سجينا وازدادت أسباب مخاوفه بفعل الاحتياطات المتخذة بشأنه.

انطلقت مسيرة القافلة الصغيرة المتكونة من مندوب عن الباي والباش سيار وحميدو ومفرزة من الفرسان العرب ، ووصلت إلى مشارف الجزائر. وتحت أسوار هذه المدينة ، بذل حميدو جهدا معتبرا محاولة منه الافلات من المصير الذي كان يخشاه. لكن يقظة الباش سيار، الخارقة للعادة ، أحبطت هذه المحاولة. كان الرايس حميدو قد خطط للقفز أرضا من على ظهر حصانه لدى مروره أمام المرابط سيدي عبد القادر، والجري نحو هذا المبنى الديني الذي كان يتمتع بحق اللجوء (الحصانة) ، للاختفاء فيه قبل الوصول إلى المرابط ببضع دقائق ، حول حميدو وضعيته إلى أحد

جانبي الحصان ، إذ كان من السهل عليه ، وهو في تلك الوضعية ، القفز أرضا بكل ارتياح دون أن يتمكن الفرسان من قطع الطريق في وجهه. لكن صوت الباش سيار جاء كالصعقة ليقضي فورا على كل أمل في الهروب.

باللّه ، ياسيدي حميدو لماذا تريد الإساءة لرجل فقير؟ أنا مسؤول عليك. أنت مخطئ ، أجاب حميدو، وسمات الغضب والإحباط بادية على وجهه بعد اكتشاف خطته ، لقد تعبت وأردت تغيير وضعيتي لأستريح . أنا بحار ولست متعودا على امتطاء الحصان مسافات طويلة.

وهكذا اقتيد حميدو ، طوعا أو كرها، أمام الباشا، وإنه لمن اليسير تصور المقابلة التي جمعتهما. اهتزت مشاعر المجلس خوفا من غضب الباش حسن ، وأحس حميدو بأن رأسه يتأرجح على كتفيه. غير أنه جرى نقاش حول معرفة ما إذا كانت القالة تتوفر على مرفأ أم لا.

وبأمر من الباشا ، أحضرت خريطة بحرية ، وبعد تفحصها تبين بوضوح أن القالة كان يشار لها بعلامة مرساة ، وعليه ، كان لزاما الاعتراف بأن حميدو كان على صواب لما توجه أليها للإرساء بها ، وهزم الباشا. لكن هذه الهزيمة أزاحت عنه غيظه مما جعله يعفو عن الرايس حميدو.

استعاد حميدو ، حينئذ ، كل حيويته وكبريائه ، وتقدم نحو الباشا بكل حماس وصاح مبتهجا : لا تندم على سنبكك ، يا سيدي ، سأحضر لك السفن بقدر عدد الألواح الموجودة فيه ، والكفار بقدر عدد مساميره. كوفئ حميدو على هذا التباهي مكافأة معتبرة ، وأسندت له قيادة سنبك جديد ، وقام وهو على رأس هذه السفينة ، برحلات مثمرة عديدة. حسبما يقال ، لكن لم نتلقى تفاصيل عنها لاعن طريق الوثائق الرسمية ولا عن طريق الرواية.

ومهما يكن ، تلقى حميدو قيادة سفينة (غراب) الباشا بعد عودتها ، ذات يوم ، بدون راية ، الشيء الذي كان يدل على فقدان قبطانها. وكانت هذه السفينة في تلك الفترة أكبر سفينة في الأسطول الجزائري ، وفي عام 1797م ، ظهر الرايس ولأول مرة ، مع هذه السفينة ، في دفتر الغنائم الذي يمسكه خوجة الغنائم . فالمقال المحرر بشأنه هو كالآتي:

غنمت "« La corvette » سيدنا الباشا بقيادة الرايس حميدو سفينة جينوية محملة بالخزف في 22 محرم 1212(الاثنين 17 جويلية 1797م)

وحسب هذا الدفتر، قدر إجمالي منتوج الغنيمة بقيمة 10.000فرنك. بعد هذه العملية الرائعة الأولى من نوعها، التي يوجد

لها أثر رسمي والتي دفع ثمنها الجنويون استخدام حميدو والنابوليين والإسبان والبرتغاليين...، ويعطينا دفتر الغنائم البيانات التالية:
غنمت سفينة الرايس حميدو والسنبك الذي يقوده الرايس تشلبي سفينة بندقية محملة بالملاءات وسفينة جنوية، وسفينتين نابوليتين محملتين بالقمح، وبيعت هذه السفن في تونس بحيث أرسل منتوجها إلى الجزائر. وأدرج في هذه الحسابات ثمن الكفار المتواجدين على متن هذه السفن والبالغ عددهم 28 فردا. بتاريخ 15 من شهر جمادى الثاني من سنة 1212 -الأربعاء 3 جانفي 1798م) ويقدر المنتوج بقيمة 6244 فرنك و 20 سنتيما.

II

استولى الجزائريون على سفينتين فرنسيتين . وتعرض الضباط الفرنسيون للنهب والتنكيل في مرسى تونس، من قبل قبطان قرصان . وأخيرا استولوا على سفينة نابولية في عرض مياه جزر Iles d'hyeres .إن مصطفى قد تصرف بهذه الكيفية لأنه كان ينفذ الأوامر الرسمية الصادرة له من الباب العالي الذي اغتاظ كثيرا للحملة الموجهة ضد مصر.

غير أن موقف مصطفى هذا قد تغير فيما بعد. والواقع أن جزءا من مؤن حملة مصر كان مسحوبا من إيالة الجزائر وكان هذا الدين المصدر الجزئي للدين المستحق للتجارة الجزائرية على فرنسا

وهو الدين الذي لعب دورا بارزا جدا في الأحداث التي وقعت فيما بعد ، وهو الذي دفع الفرنسيين ذات يوم ، إلى احتلال الجزائر.

أثار سلوك مصطفى استياء الباب العالي الذي وبخه توبيخا شديداللهجة، خاصة في2 فيفري1801 م"أعلم يقول القبطان باشا القسطنطينية في كتابه المرسل لمصطفى ، إني أصدرت أوامر إلى موانئ الخلافة كافة ، من أجل طرد كل أعوانكم. كما أصدرت الأمر بعدم تزويد الإيالات بأي جندي وعدم السماح لها بالقيام بأي تجنيد ، وبأسر كل سفينة تابعة لها قد تظهر في أحد موانئ البحر الأبيض المتوسط وسجن قائدها وطاقمها ."

بقي هذا التوبيخ بدون أثر، وفيما بعد ، شرع بونابرت في التعامل مع داي الجزائر، بعد أن أصبح القنصل الأول ، وأعاد السلم بين فرنسا والباب العالي. فوقعت معاهدة في 7 نيفوز (Nivose) في العام العاشر (17 ديسمبر 1801م) بين المكلف بالأعمال ومحافظ العلاقات التجارية للجمهورية الفرنسية وبين مصطفى باشا ، وهي المعاهدة التي أكدت المعاهدات السابقة المتعلقة بالملاحة والتجارة ووضعت الاتفاقيات والنصوص المتعلقة بالامتيازات الممنوحة لشركة إفريقيا ، موضع التنفيذ من جديد. وأمرت باستعادة الأشياء المصادرة ماعدا تلك المتعلقة بتصفية الحسابات الخاصة بمؤخرات الديون. وانتشرت سمعة بونابرت في الإيالة. واعتاد حميدو ، أحد

المعجبين بالجنرال المقدام ، على القول : " حفظ الله بونابرت ! فكلما واجهته الأمم، كلما هزمت، وعليه لن تفكر في إزعاجنا." اغتيل مصطفى باشا عام 1220ه (1805م) بعد حكم دام 8 سنوات، وخلفه في منصبه أحمد باشا.

وخلال الثمانية سنوات هذه ، حافظ حميدو على قيادة سفينته « La Corvete » واستمر ذكره بجانب هذه السفينة في **دفتر الغنائم** : غنمت فرقاطة الرايس حاج يعقوب وسفينة الرايس حميدو وسفينة الرايس قاره دانجلي kara Danegli وسنبك الرايس محمد وعلي وقارب الرايس قردورلي على سفينة نابولية محملة ببضائع مختلفة (15 محرم 1213 -29 جوان 1798م). ويقدر المنتوج بقيمة 6798 فرنك.

غنمت السفن المبينة في المقال السابق سفينتين نابوليتين محملتين بالقمح ،واللوبيا،والتبغ،ومواد زجاجية، وألواح وأشياء أخرى (2 صفر 1213 -16 جويلية 1798م). ويقدر المنتوج بقيمة 67.470 فرنك و20 سنتيما.

"كما غنمت السفن المبينة أعلاه سفينة محملة بالقمح (20 صفر 1213 -13 أوت 1798م) ويقدر المنتوج بقيمة 1047 فرنك و 60 سنتيما. "غنمت سفينة الرايس حميدو وسنبك الرايس علواش سفينة جنوية محملة بالأرز ، والطاقيات ، والجلود والشمع وأشياء أخرى

(11 ربيع الأول -23 أوت 1798م)". ويقدر المنتوج بقيمة م30861فرنك..

نرى هنا أن القراصنة كانوا يهاجمون حتى بواخر اليونان الذي لم يكن آنذاك سوى مقاطعة تركية. فكانوا يتجرؤون على التسابق في جلب الغنائم على حساب خدام سلطانهم . وفي هذا الشأن، وجه الباب العالي توبيخا شديد اللهجة إلى داي الجزائر وقباطنة بحريته مهددا إياهم بمعاملتهم معاملة الأعداء إذا ما استمروا على هذا المنوال .غير أن أعمال العصيان السافر هذه قد تضاعفت في ظل سلطة الحاج علي باشا واكتسبت طابع العدوان الحقيقي.

وتعبيرا عن استيائه واستنكاره لهذه الأسباب ، صادر الباب العالي فندقا كانت إيالة الجزائر قد قامت ببنائه في سميرنا Smyrne ،لاستعماله كثكنة لاستقبال المجندين الجدد ، تم سحب كل الحقوق من أعوان هذه الإيالة وأصدر الأمر لأسطوله بمهاجمة السفن الجزائرية وأعد العدة لشن حملة ضد الجزائر.

ولكن، وقبل التنفيذ الكامل لهذه الأوامر، وفي 11 من ربيع الثاني 1230ه. ذبح الحاج علي باشا في حمامات شققه وعوض بالحاج محمد، أمين الخزينة ، الذي اغتيل بدوره بعد مرور سبعة عشر يوما، وخلفه عمر باشا.

سار عمر باشا إلى إرسال مبعوث إلى القسطنطينية ، وهو الرسول الذي عاد منها حاملا فرمان (أمر سلطاني) مؤرخ في رمضان 1230ه ، يعترف لعمر بصفة الباشا.

"يأيها الأمير، كان يقول السلطان، عينتك وخولتك كل السلطات لتحكم بالحكمة والعدل، ولا تتبع على الخصوص، أهواء من سبقوك ولا تعتدي على سفن الأمم التي تعيش في كنف السلام مع الباب العالي. هذه الوصايا موجهة كذلك إلى قباطنة السفن وإلى كل الرياس. بهذا الثمن ينسى الماضي وسأرضي عنكم جميعا."

ظل الكفار يشكون على الدوام الفريسة المساغة للقراصنة الجزائريين. لم يبقى حميدو مكتوف الأيدي خلال حدوث تلك التحولات السياسية. ويروي لنا **دفتر الغنائم** جميع مآثره:

"غنم الرايس حميدو سنبكا نابوليا محملا بالفول وعلى متنه تسعة كفار (5 محرم 1214) ويقدر المنتوج بقيمة 4326 فرنك و 60 سنتيما.

غنمت سفينة الرايس حميدو ثلاث سفن نابولية محملة بالملح وعلى متنها 43 كافرا (22 ربيع الثاني 1214 - الجمعة 30 أوت 1799م) ويقدر المنتوج بقيمة 25.468فرنك و80 سنتيما."

غنم الرايس حميدو سفينتين نابوليتين محملتين بالملح وعلى متنها 50 كافرا (25 شعبان 1214- 2 جانفي 1800م) ويقدر المنتوج بقيمة 36.479 فرنك و 40 سنتيما.

وغنمت سفينة الرايس بن زرمان وسفينة حميدو وسنبك الرايس حسن وقارب شراعي الرايس عباس، سفينة نابولية محملة بالزيت (18 جمادى الثاني - 06 نوفمبر 1800م) ويقدر المنتوج بقيمة 33.691 فرنك و 80 سنتيما.

III

بعد فترة من الزمن، أسندت لحميدو قيادة سفينة جديرة به كان بناها نجار إسباني المسمى Maestro Antonio في الجزائر، وكانت هذه الفرقاطة المسلحة ب 44 مدفع، جميلة وجيدة ولها أشرعة خفيفة وكانت رائعة في الإبحار لكنها كانت فقط قليلة السرعة. كان الرايس حميدو دائما ميالا لهذه السفينة ولم يرد تبديلها أبدا بأي سفينة أخرى. فبها اكتسب شهرته وأنجز المآثر التي سنرويها لاحقا.

أما المايسترو أنطونيو ، فقد غادر الجزائر وهو ينعم بالمكافآت والجوائز، بعدما بنى فرقاطة كبيرة أخرى كان الرايس علي طاطار هو أول من قادها.

في 20 جانفي 1802م، غنمت فرقاطة الرايس حميدو قاربا نابوليا محملا بالزيت وعثر على متنه على 1000 أوقية بندقية من ذهب و21 كافر، ويقدر المنتوج بقيمة 19.592 فرنك و 60 سنتيما.

لكن كفى من الانتصارات الروتينية ومن النجاحات السهلة فالانتصار الذي يتحقق بدون مخاطرة لا يجلب المجد. ومنذ أن

تحصل على الفرقاطة وحميدو يحترق شوقا لإبراز قدرته أمام الكفار على القيام بأشياء أخرى غير عمليات السطو على التجار المسالمين.وعليه فكر في غنم سفينة حربية وسرعان ما تكللت جرأته بالنجاح إذ عاد إلى الجزائر بفرقاطة برتغالية مجهزة ب 44 مدفع.

وفيما يلي البيان المقيد في **دفترالغنائم**، بشأن هذا الموضوع.

"غنمت فرقاطة سيدنا الرايس حميدو سفينة حربية برتغالية مجهزة ب 44 مدفع وأسر 282 كافرا كانوا على متنها. أعطي إثنان من هؤلاء الكفار للبحار الذي كان الأول من اقتحم السفينة المذكورة ، وأقر سيدنا الباشا هذه الهبة. وأعطي كافر آخر لسيدي عبد الرحمان، وبقي عدد الكفار 279 أسيرا. أرسل الباشا ثمن هذه الغنيمة بالدوبلون وبمجرد وصول هذا المبلغ البحرية شرع في توزيعه على الطاقم (25 محرم 1217 -28 ماي 1802م)"

هنا لم تعرض البضائع للبيع لأن الغنيمة منحت للدولة كاملة. إلا أن الباشا أرسل إلى طاقم الرايس حميدو قيمة الغنيمة لتوزيعها حسب العرف والعادات ، وحسب **دفتر الغنائم** ، كان المبلغ الذي أرسله الباشا يقدر ب 103590 فرنك.

من المفهوم أن غنيمة من هذا النوع تكون أثرت في نفوس الجزائريين تأثيرا عميقا. فالروايات الشفوية المتداولة بشأنها تسمح بإتمام الرواية الرسمية.

وتكون الأحداث قد وقعت على النحو التالي:

" أبحر حميدو في الوقت ذاته الذي أبحرت فيه فرقاطة 'المريكانا'، التي كان يقودها الرايس أحمد ازميرلي ، الذي أصبح فيما بعد أمينا للخزينة. لكن سرعان ما افترقت السفينتان وسلكت كل واحدة طريقها بحثا عن الغنيمة.

بعد إبحار دام بضعة أيام ، التقى الرايس حميدو بفرقاطة برتغالية فوضع مشروعا جريئا للاستيلاء عليها ، وتنفيذا لخطته ، استعمل الحيلة فرفع الراية الإنجليزية . قبلت السفينة البرتغالية هذا التحول دون احتراس ، مما أثار الإعجاب الكبير بالسلوك الذي تحلت به الفرقاطة الجزائرية ، وتركت هذه الأخيرة(الفرقاطة الجزائرية) تدخل مياهها بكل طمأنينة ، ربما اعتقادا منها أن السفينة الجزائرية تريد إطلاعها على بعض الأشياء . ولما تبخر هذا الوهم – كان الوقت قد فات. فكان الاقتحام سريعا وفجائيا. إذ بعد تصادم السفينتين، اقتحم الجزائريون السفينة البرتغالية رغم أن هذه الأخيرة كانت مجهزة بالشبكات الواقية. وتمكن هذا العدد الهائل من البحارين المعد للمعركة والمدجج بالأسلحة الذي يحدوه التعصب الشديد والأمل في تحقيق غزوة(غنيمة) لا مثيل لها في سجل مآثر الإ يالة ، تمكن من الانتصار على مقاومة يائسة لم تتمكن من تجميع قواتها وتنظيم صفوفها بفعل عامل المفاجأة والارتباك الذي وقعت فيه.

كان النصر، إذن ، حليف المؤمنين ، وبينما كان الرايس حميدو يضع يده على غنيمته الرائعة ، وصلت إلى ساحة الحدث سفينة"المريكانا" التي كانت أبحرت معه. إن الرايس أحمد الذي لم يتمكن من المشاركة في المعركة ، أراد -على الأقل - كسب المجد عن طريق تبليغ الخبر. وتوجه مسرعا ، مباشرة إلى الجزائر ليسبق المنتصر والمنهزم. لم يمض وقت طويل حتى وصلت "المريكانا" قبالة الحي الحربي وهي تطلق نيران مدافعها من جانبي السفينة ، محدثة بذلك ضجيجا سرعان ما أصبحت المدينة كلها تروج له.

وسارع قائد المرسى إلى الاطلاع على أسباب هذا الابتهاج . وبمجرد أن علم بالحدث ، سارع إلى إخبار الباشا بذلك. إذن ، ما ذا حدث ؟ قال الباشا لقائد المرسى ، لاشك أن احمد قد عاد بغنيمة رائعة ليقوم بمثل هذا الضجيج.

سيدي ، أجاب قائد المرسى ، لم يغنم شيئا ، ولكنه جاء فقط ليخبر أن الرايس حميدو قد غنم سفينة برتغالية رائعة. ها ! ها !ها! هذه قصة فريدة من نوعها ، أضاف الباشا مبتسما : حميدو يتزوج وأحمد يريد أن يكون العريس !

ولما وصل الرايس حميدو ، بدوره إلى الجزائر، بلغ جو الحماس والبهجة أوجه. فاستقبل الباشا المنتصر استقبالا رسميا وهنأه علنيا ومنحه الملبس وقلده اليطقان الشرفي.

تلك هي ، تقريبا ، الرواية الشفوية المتداولة عن هذا الحدث. ومهما كانت التفاصيل ، فالواقعة مؤكدة. زودت الفرقاطة المأسورة بطاقم من المؤمنين وأصبحت تبحر باسم " البرتغيزة". غنمت هذه السفينة عددا معقولا من الكفار لكن حملة اللورد إكسموث Lord Exmouth (27 August 1816) وضعت حدا لحياتها.

إن هذه الفرقاطة ليست السفينة الحربية الوحيدة التي غنمها قراصنة الجزائر، وفي هذا الصدد ، يشير **دفتر الغنائم** إلى ما يلي : في 26 أكتوبر ، غنم سنبك حربي إسباني على متنه 22 رجل ، في 6 سبتمبر 1776م ، غنم صندل إسباني ، في 29 نوفمبر 1777م ، غنم سفينة حربية يونانية ، في أوت 1779م ، غنم سفينة حربية برتغالية على متنها 100 رجل.

إذ كان يستحسن مزج القليل من المجد برتابة الغزوات اليومية ، إلا أنه من الحكمة بمكان التفكير في ضرورات المعيشة وأضحى تجار القنابل (كرات المدافع) في نهاية المطاف ، يعرضون أرباحا تقل عن تلك التي يعرضها التجار العاديون ، إن حميدو لم يكن يهمل الحملات المربحة. وسيمكننا **دفتر الغنائم** من إجراء حصيلة للغنائم التي حققها ما بين 1804 -1805م :

" غنمت فرقاطة سيدنا الرايس حميدو سفينة نابولية محملة بالملح وعثرعلى متنها 70 كافرا، وعلى قنطار و61 رطلا من المرجان

وعلى نقود(15 ذي القعدة 1218 -26 فيفري 1804م)". ويقدر المنتوج بقيمة 32863 فرنك و 20 سنتيما.

" غنمت فرقاطة الرايس حميدو ، رفقة 5 سفن ، بيعت سفينة بتونس" ويقدر المنتوج بقيمة 1776 فرنك.

أسر حمدان وفرقاطة الرايس حميدو وسفينة الرايس بن زرمان وسفينة الرايس لميالي وبولاكر الرايس حسين وسنبك الرايس أحمد وسنبك الرايس علي غرنعوط وسفينة الرايس ألعراش وفرقاطة "المريكانا" التي كان يقودها الرايس اسكندريني، مع 65 كافرا اقتادوهم إلى الجزائر" ويقدر المنتوج بقيمة 23034 فرنك. مما يمنح ثمنا قدره 354 فرنك تقريبا على كل كافر.

" وأسرت فرقاطة الرايس حميدو ، وفرقاطة الرايس تشلبي، وفرقاطة الرايس محمد وعلى مركب شراع لقارة يوسف ، وبولاكر الرايس مصطفى ، وبولاكر الرايس حسين، وسنبك الرايس علي طاطار، وسنبك الرايس حمدان وسنبك وزون محمد رايس، وعلى متنه 32 كافرا نابوليا وتم اقتداؤهم إلى هذه المدينة في 5 شوال 1219 -7 جانفي 1805م)" ويقدر المنتوج بقيمة 11340 فرنك و 60 سنتيما.

" غنمت فرقاطة الرايس حميدو وسنبك سيدنا الذي كان يقوده الرايس حمدان ، وسفينة أمريكية محملة باللوبية وعلى

متنها 58 كافرا (صفر 1220—1805م) ويقدر المنتوج بقيمة 33805 فرنك و 20 سنتيما.

وتميزت هذه السنة 1805م بتغيير الباشا إذ خلف أحمد مصطفى الذي اغتالته ميليشياته. غير أن هذا التغيير لم يأت بجديد بالنسبة لوظيفة الرايس حميدو الذي تواصل ذكره في **دفتر الغنائم**.

" في 28 من ذي الحجة من سنة 1220 - 19 مارس 1806م) غنم الرايس حميدو سفنا برتغالية ومن هامبورغ" ويقدر المنتوج بقيمة 11594 فرنك و60 سنتيما .

في 1807م أرسل الرايس حميدو في مهمة إلى سميرنة ، وكانت هذه الرحلة مضرة بمصالحه، لكن رئيسنا كان رجل موارد وكان يجيد استخدام أوقات فراغه كما يمكن استخلاص ذلك من المقالات التالية الواردة في **دفتر الغنائم:**

" في 28 من شهر رجب من سنة 1222 - أول أكتوبر 1807م) شاء الله أن يأسر حميدو وهو في طريقه إلى سميرنة 10 كفار كانوا متوجهين إلى معرض ." ويقدر المنتوج بقيمة 5191 فرنك و 20 سنتيما.

" غنم حميدو وهو عائد من سميرنة رفقة وكيل الحرج لدى القصر، قارة احمد باي ، على متن بولاكر(سفينة) التي كان قد استعملها في رحلته إلى القسطنطينية، وبفضل الله ، سفينة محملة بالتين . (2 شعبان 1222 - 5 أكتوبر 1807م). وما أن عاد إلى الجزائر ، حتى عاود الرايس حميدو رحلاته البحرية بانتظام.

IV

تتميز سنتا 1807 و 1808م بمآثر قليلة الأهمية في حياة الرايس حميدو وفي هذا الصدد، يذكر لنا **دفتر الغنائم** البيانات التالية:

" أنعم الله على حميدو بغنيمة برتغالية بيعت في المغرب (1222 - 1807م)" ويقدر المنتوج بقيمة 11787 فرنك و 60 سنتيما.

" في 29 من ذي القعدة – جانفي 1808م) غنمت فرقاطة الرايس حميدو وسنبك حمدان رايس سفينة محملة بالبوطاس وكان على متنها 5 كفار" ويقدر المنتوج بقيمة 28830 فرنك.

" في شعبان (1223 - أكتوبر 1808) غنم القبطان حميدو سفينتين برتغاليتين محملتين بالقمح والفحم وكان على متنهما 74 كافرا" ويقدر المنتوج بقيمة 20485 فرنك و 20 سنتيما.

واعتبارا من تلك الفترة ، وعلى مدى سنتين تقريبا ، لم يعد اسم الرايس حميدو يذكر في دفتر الغنائم. ويستدعي هذا الإغفال إعطاء بعض التوضيحات:

رأينا أن حميدو قد ثبته أحمد باشا في القيادة. لكن فيما بعد وقعت ثورة انكشارية جديدة أراقت الدماء من جديد ، في القصر. مما زاد غيظ أحمد باشا وهو يرى المؤامرات تحاك ضد سلطته من جميع النواحي ولجأ إلى تنفيذ إعدامات جديدة مما جعله يتصف بالفظاعة أمام أعين الناس. ويزعم أن اكثر من 900 تركي

دفعوا حياتهم ثمن قلة قناعة الباشا في استقرار حكمه. فثارت الميليشيا على هذا السفاح المستبد واغتالته وقطعته إربا إربا.

خلف علي أحمد باشا ، لكن ، بالمقابل ، لم يكسب الانكشاريون كثيرا. ولم يكن الباشا الجديد أفضل ممن سبقه إذ حدث له ما حدث لسابقه بعد مرور 4 أشهر من انتخابه.

من الأعمال الأولى التي قام بها الباشا الجديد هو نفي حميدو الذي ربما كانت شهرته تزعجه ، رغم أنه لم يكن هناك ما يبرر خشيته منه كمنافس له على السلطة بما أن حميدو لم يكن تركيا.

إذن ، أرسل حميدو إلى المنفى إلى بيروت. لكن سرعان ما استقدم الحاج علي باشا ، أمين خزينة الإيالة الذي وصل إلى الحكم في 24 محرم1224 – 1809 م.

الرايس حميدو الشهير الذي أكسبت مآثره البحرية الجزائرية مفخرة لاتضاهى .

عاود الرايس حميدو قيادة فرقاطته بعد عودته إلى الجزائر ، واسند له الباشا فرقة تتكون من أربع سفن ورخص لها بالإبحار في المحيط.

أبحر الرايس حميدو وشق البحر صحبة فرقته ، التي كانت متكونة مما يأتي: فرقاطة مجهزة ب 44 مدفع يركبها الرايس حميدو، وفرقاطة مجهزة ب 44 مدفع يقودها الرايس رانوت

والفرقاطة البرتغالية المجهزة ب 44 مدفع التي كان يقودها أحمد زميرلي ، وسنبك مجهز ب 20 مدفع يقوده الرايس مصطفى المالطي. لما وصل حميدو مضيق جبل طارق ، اغتنم فرصة قدوم الليل وهبوب الرياح الشرقية المناسبة ليجتازه دون أن تلمحه الأبصار. في هذا البحر (المحيط) الذي تتسع فيه الآفاق أكثر من البحر الأبيض المتوسط والذي كان من المفروض أن لا ترتاح له الفرقة الجزائرية قامت هذه الأخيرة بتحقيق إنجاز رائع إذ غنمت ثلاث سفن برتغالية آخرها كان سنبكا هائلا كان قادما من هافانا محملا بالتبغ وهو السنبك الذي حول فيما بعد إلى سفينة يستعملها القرصان الجزائري.

بعد هذا الإنجاز الرائع ، رأى حميدو أن فترة التبجح قد امتدت إلى ما فيه الكفاية. وشعورا منه بالسعادة والرضى على النتائج الإيجابية التي حققها أثناء رحلته إلى المحيط التي استغرقت بضعة أيام ، استعد الرايس حميدو لعبور المضيق من جديد. وكان من السفن التي غنمها واحتفظ بالثالثة لديه.

اقتربت الفرقة الجزائرية من مدخل المضيق في مطلع النهار بينما كان ريح الشمال يهب بشكل طفيف ، ولما دخلت المضيق شاهدت عند بزوغ الفجر، اشرعة سفن عديدة على مقربة منها ، وسفينتين أو ثلاث سفن كبيرة على مسافة أبعد.

بعد تفحص وتمعن ، تبين أن السفن الجزائرية كانت تواجه أسطولا برتغاليا وثلاث فرقاطات تابعة للبلاد ذاتها ، كان يقطع الطريق في وجهها . وعلى الفور ، اتخذ حميدو بكل عزم وثبات احتياطاته. وأصدر الأوامر لرجاله بواسطة مكبر للصوت. فوحدت الفرقاطات الثلاثة صفوفها وتراصت في خط سيرها وتقدمت ببسالة نحو أسطول العدو والأشرعة مرتفعة عالية والصائل مائل على الكوثل (مؤخر السفينة)

" إن هاجمنا الأسطول نقتحمه جميعا دفعة واحدة " أما الغنيمة فكانت متجهة نحو جبل طارق بسرية تامة. لكن عندما كانت الفرقاطات توشك على الأ لتقاء بالأسطول ، غير هذا الأخير مسلكه وانتهج اتجاها آخر . حينئذ ، بلغ تحدي حميدو ذروته فوجه الأشرعة لتوقيف السفن.

روى، فيما بعد ، أحد الأعوان بل أحد الجواسيس الذين يعملون لحساب الإيالة في جبل طارق ، أن الجمهور الغفير الذي كان يشاهد من بعيد هذا المشهد البحري ، قد صفق كثيرا لتلك المناورة البطولية التي قام بها الرايس حميدو.

ولما أثبت للغير بما فيه الكفاية أن الرايس حميدو لم يكن يتأهب للفرار ، أمر باستئناف الرحلة والصائل مائل دائما على الكوثل ، كان النسيم ضعيفا وانتهى اليوم بإجراء مناورات من كلا الجانبين ، وهي المناورات التي جعلت الأسطول الجزائري

يكسب مسافات هائلة. وبقدوم الليل ، تمكن الأسطول الجزائري الذي ساعده في ذلك هبوب نسيم بارد ، من الابتعاد تماما عن أعدائه. وعاد إلى الجزائر حيث أحدثت الرواية المتداولة بشأن هذه الرحلة ، صدى عميقا.

V

لم يتأخر حميدو في تقديم خدمات جديدة بمناسبة اندلاع الحرب بين إيالة الجزائر وإيالة تونس.

في هذا الصدد ، يروي لنا **دفتر الغنائم** مايلي:

" في 11 رمضان 1225 - 10أكتوبر 1810م" غنم الرئيس حميدو بضائع تونسية تقدر قيمتها بمبلغ 91385 فرنك و40 سنتيما ".

" في جمادى الأول 1226 - من 29 ماي إلى 22 جوان 1811م" غنمت ست سفن حربية يقودها الرايس حميدو بضائع تونسية محملة على متن سفينة بريطانية ، تقدر قيمتها بمبلغ 53874 فرنك و60 سنتيما ".

في تلك السنة، تميز حميدو بغنم فرقاطة جديدة. لكن درجة المجد التي بلغها هذه المرة كانت أقل لأن السفينة التي غنمها كانت تابعة للبحرية التونسية. والجميع يعلم أن الجزائريين كانوا يعتبرون أنفسهم متفوقين كثيرا على التونسيين وكانوا يتعاملون معهم بشيء من الاحتقار.

غير أن المعركة كانت حامية الوطيس إذ استغرقت ست ساعات كاملة حسب الرواية المقيدة في سجل " **التشريفات** "

" في 28 من ربيع الثاني سنة 1226 - 22 ماي 1811م، غنم الرايس حميدو صحبة فرقاطته فرقاطة تونسية واقتادها إلى الجزائر بعد معركة رائعة. كان الأسطول الجزائري يتكون من ست سفن حربية وأربع مدفعيات بينما كان الأسطول التونسي يتكون من 12 سفينة حربية. لكن المعركة وقعت فقط بين فرقاطة الرايس حميدو والفرقاطة التونسية المتعلقة بالأمر. دامت المعركة ست ساعات ولم تنته إلا بعد غروب الشمس.

بلغ عدد القتلى من جانب فرقاطتنا 41 قتيلا ، بينما بلغ العدد من جانب الفرقاطة التونسية 230 قتيلا. رحمهم الله جميعا لأننا كلنا مسلمـون ، وهدانا سواء السبيل (أو أحسن عاقبتنا) آمين "

وحسب المعلومات المستقاة شفويا ، يبدو أن قائد الفرقة التونسية ، كان متواجدا على متن الفرقاطة المهزومة. وكانت هذه المعركة ناجمة عن تحد وعن مبارزة بين القائدين كان الأسطولان شاهدين عليها.

إن هذه الحادثة تثبت مرة أخرى أن الإ يالتين لم تكونا تعيشان في انسجام جيد.

بعد انهزام قائده، فر الأسطول التونسي أمام الأسطول الجزائري الذي كان يلاحقه ، وعاد بكل خجل إلى تونس حيث أقيل قباطنه وشتموا شتما كبيرا.

أما الأسطول الجزائري فكانت عودته حافلة بالأمجاد ، فنظمت الحفلات والولائم العمومية. وكانت هذه المرة الثانية التي يأتي فيها حميدو بفرقاطة مهزومة إلى الجزائر. فحظي البطل الجزائري بترحيب شعبي حار وهنأه الباشا علنيا. وتعبيرا عن رضائه ، زين الباشا عمامة الرايس المنتصر بزهرة كان يمسكها بيده الشريفة.

احتفظ الجزائريون بالفرقاطة التونسية التي نجد اسمها مذكورا في وثائق عديدة.

بعد أن ذكرنا بهذا الانتصار الرائع الذي تألق فيه الرايس حميدو لنعد إلى **دفتر الغنائم**:

" في 15 جمادى الثاني 1227 - 6 جويلية 1812م، غنمت ثمانية سفن حربية سفينة كبيرة تابعة لليونانيين الكفار. وكان الرايس حميدو يقود إحدى هذه السفن ...الخ كما غنمت هذه السفن أربعة سفن كبيرة يونانية محملة بالقمح والخمر وماء الحياة (مشروبات كحولية) والزبيب" ويقدر المنتوج بقيمة 742990 فرنك و20 سنتيما.

" غنمت إحدى عشرة سفينة حربية وست بوارج مدفعية و وغاليوت المشتركة جميعا من أجل القسمة، قاربا صقليا كان يركبه أربعة

كفار ، وسنبكا أمريكيا محملا بأشياء متنوعة. وفي 25 رمضان 1227 -3 أكتوبر 1812، قد هذه السفن الرايس حميدو و ...الخ" يقدر المنتوج بقيمة 43176 فرنك و 60 سنتيما.

" في 1229هـ -1814م، غنمت ثمانية سفن حربية شريكة سنبكا صقليا محملا بالفخار والحديد، وسنبك آخر محمل بالقمح، قاد هذه السفن الرايس حميدو وقبطان و ...الخ." ويقدر المنتوج بقيمة 254968 فرنك و 20 سنتيما.

" في 20 صفر 1229 - 11 فيفري 1814م، أبحرت ست سفن حربية بحثا عن سفن سويدية ودانماركية ، وغنمت مايلي: سنبك سويديا وسنبك هولنديا محملا بالملح وسنبك محملا بالملح والقماش وسنبك محملا بالملح وسفينة كبيرة سويدية محملة بدود القز والبن والسكر، وسفينة دانماركية محملة بسمك المورة وسفينتين محملتين بالخشب. قد هذه السفن الرايس حميدو و..الخ" ويقدر المنتوج بقيمة 441.290 فرنك.

" في 1229، غنمت سفينتان كان يقودهما حميدو وعلي طاطار سفينة سويدية محملة بالقماش ، وسفينتين هولنديتين محملتين بالملح " ويقدر المنتوج بقيمة 337418 فرنك و 40 سنتيما.

" في 15 صفر 1230 - جانفي 1815م،غنمت خمسة سفن حربية شريكة غليوتة إسبانية محملة بالكاكاو، وسفينة هولندية محملة

بالملح كان على متنها 7 كفار. قاد هذه السفينة الرايس حميدو و ...الخ" ويقدر المنتوج بقيمة 94050 فرنك و 60 سنتيما.

VI

كانت هذه آخر الغنائم التي جاء بها الرايس حميدو إلى الجزائر. ولم يمض وقت طويل حتى لقي مصرعه في هذا البحر الذي جابه مدة طويلة. لكن هذا الموت كان عظيما وجدير بالبطل إذ لفظ حميدو أنفاسه وهو على كرسي القيادة هادئا باسلا تحت نيران مدافع الفرقة الأمريكية التي كانت فاجأته وحاصرته ، وهي الفرقة التي وقف لها حميدو الند للند بكل شرف رغم عدم تكافؤ قوات الطرفين، الذي لم يكن يترك أي بصيص من الأمل لفك الحصار المضروب عليه وللنجاة.

إن هذه الكارثة تستحق قليلا من الشرح. وإنه لمن الأهمية بمكان، إلقاء نظرة إلى الماضي لمعرفة طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين إيالة الجزائر والولايات المتحدة الأمريكية إلى غاية اللحظة الحاسمة التي انتهت فيها حياة الرايس حميدو الحافلة بالأمجاد والأنتصارات.

لاشك أن الرياس الجزائريين يكونون قد ارتبكوا في تحديد جنسية السفينة الأمريكية لما شاهدوا ولأول مرة بمناظرهم. رايتها المخططة بالأحمر والأزرق المرصع بالنجوم ، لكنهم لم يكونوا من صنف البشر الذين يكترثون لمثل هذه الأشياء التافهة.

فبالنسبة إليهم ، كانت هذه الراية توحي بوجود أعداء ، إذن، كانت هذه الراية الجديدة والغريبة بمثابة غنيمة جيدة شأنها شأن الغنائم الأخرى لأن كل كافر هو مولود لغرض واحد ووحيد ، ألا وهو أن يصبح فريسة للمؤمنين.

كان الأمريكيون يتعرضون في الماضي لاعتداءات القراصنة الجزائريين بمجرد دخولهم البحر الأبيض المتوسط. مما حملهم على الإقرار بضرورة التفاوض والتعامل مع الرئيس العظيم لهذه الدولة المتكونة من المؤمنين الأوفياء والنيرين.

وهكذا ، وقعت معاهدة في 5 سبتمبر، سنة 1795 م ، بين الجزائر والولايات المتحدة الأمريكية ، يلتزم بمقتضاها الأمريكيون بدفع ضريبة سنوية قدرها 12000 سلطاني من ذهب ، أي ما يعادل مبلغ 21.600 دولار وما يساوي 64.800 فرنك. وكانت هذه الضريبة تدفع بدون انقطاع إلى غاية 1810م. وتوقف دفعها في سنة 1811م ، واندلعت الحرب رسميا بين الدولتين سنة 1812م .

أدت هذه القطيعة إلى إرسال أسطول أمريكي إلى البحر الأبيض المتوسط سنة 1815م. وتشير وثيقة جزائرية إلى نتيجة هذه الحملة على النحو التالي:

" صادفت ثمانية سفن حربية أمريكية فرقاطة و Brick جزائريتين واستولت عليهما. ثم توجهت بهما إلى الجزائر ولما انتشرخبر هذا الحدث، أبرمت معاهدة السلم في" 22 رجب 1230- 3 جوان 1815 م"

فوجئ الجزائريون بهذا الحدث. وكان وصول الأسطول الأمريكي غير المرتقب - في الوقت الذي كانت فيه كل سفنهم تجوب البحر - يعرض بحريتهم للخطر بصفة لا مثيل لها. فالأمريكيون وصلوا في الوقت المناسب ، إذ أن البحرية الجزائرية مشتتة في عرض البحر الأبيض المتوسط وبالتالي كانت هذه الأخيرة تحت رحمتهم. ولو أخبر الجزائريون بهذا العدوان - وبالتأكيد ، لوكان القرار صادرا عن قوة أوربية لأخبرهم جواسيسهم بذلك - لكانوا بدون منازع - استقبلوا المعتدين استقبالا مخالفا تماما.

كانت بحرية الجزائريين تتكون آنذاك من 20 سفينة ضخمة منها خمسة فرقاطات، وعدة سنابك. وكان بإمكانها التصدي للأمريكيين لوجمعت تحت رعاية أقويائها (عظمائها) . إن الفرقة الخفيفة التي يقودها الضابط Stephen Decatur لم تكن تستطيع ، في الواقع ، تحطيم حصون الجزائر عن طريق شن هجوم مباشر لأن Lord Exmouth ، الذي كان مع ذلك قد فاجأ موقعا مناسبا ، احتاج إلى ما لا يقل عن خمسة سفن كبرى منها سفينتان مجهزتان بثلاثة سطوح واثنتان مجهزتان بثمانين مدفع ، وستة فرقاطات مجهزة ب 44 مدفع وخمس مدفعيات وستة فرقاطات هولندية ، لتحقيق مثل هذه النتيجة في السنة الموالية. أما الفرقاطة الجزائرية التي يتكلم عنها السيد شالر William Shaler (قنصل الولايات المتحدة الأمريكية بالجزائر بين 1815-1828 م، وصاحب كتاب مختصر في تاريخ

الجزائر 1826-Sketches of Algiers . المترجم) في روايته وتشير إليها الوثيقة الجزائرية ، أي الفرقاطة التي غنمتها فرقة أمريكية على مستوى Cap de Gate فهي فرقاطة رئيسنا الرايس حميدو أشهر قباطنة الإيالة. ولاشك أن هذا الظرف قد زاد الجزائريين ذعرا. وقد ازداد شعورهم بالإحباط وخيبة الأمل عند بروز الأسطول الأمريكي غير المنتظر في الأفق ومشاهدتهم أشجع فرقاطاتهم مجرورة من قبل الأعداء المنتصرين.

كانت هذ الفرقاطة المسكينة متأرملة من قائدها عند ما ظهرت أمام أعين الجزائريين مهزومة وأسيرة بين أيدي الأمريكيين. ولم يعد وجود للرايس حميدو.

وقع هذا الحدث في ظل حكم عمر في (11 من شهر ربيع الثاني من سنة 1230- 23 مارس 1815م).

ذبح الباشا الحاج علي في حمامات شققه بعد حكم دام ست سنوات وعوضه الحاج محمد الذي أغتيل بدوره بعد مرور سبعة عشر يوما من تاريخ توليه السلطة وخلفه عمر آغا العرب.

كان هذا الباشا سيئ الحظ ، ففي ظل حكمه حلت المصائب على الجزائر وقتل حميدو، وأملى الأمريكيون معاهدة سلم مهينة على الجزائريين وأصيبت المدينة بمرض الطاعون وقنبل الإنجليز الجزائر وحطموا الأسطول الجزائري تحطيما كليا دون استثناء.

في 26 شوال 1232- 8 سبتمبر 1817م، وبعد سنتين من الحكم لقي الباشا عمر نفس المصير الذي لقيه سابقوه.كان الباشا عمر غريب المزاج ومتشددا ، وذات يوم استدعى حميدو مخاطبا أياه: ما هذا! قال له : قدمت فرقاطة برتغالية لمصطفي وفرقاطة تونسية للحاج علي ، أريد منك أن تأتي لي بفرقاطة أمريكية !

ولكن ، أفندي ! أجاب الرايس حميدو، بلاد الأمريكان بعيدة جدا عنا ، لا يمكنني أن أقوم برحلة طويلة من هذا النوع ! أي فرقاطة !!عقب عليه الباشا ، حاول دائما !

أبحر حميدو طاعة منه للباشا ، وبحثا عن غنيمة معتبرة في الوقت ذاته. وكان مرفوقا ب سنبك البرتغالية التي حولها نحو طريق آخر بعد فترة قصيرة من وقت إبحاره.

وبعد بضعة أيام من الملاحة البحرية ، أشار مراقبو السفينة وجود اسطول قريب منهم قادما من الاتجاه المعاكس ، ولما تقلصت المسافة بينهما ، أعلن حميدو أن الأسطول الذي يشاهدونه هو أسطول إسباني ولا داعي للخوف ، نظرا لمعاهد السلام المبرمة مع هذه الأمة. أما مساعده ، فألح عليه الابتعاد عن ذلك الأسطول اعتقادا منه أن السفن كانت أمريكية.

ولم يمض وقت طويل حتى وصل الأسطول المشار إليه إلى مياه الفرقاطة الجزائرية. ولما فات الأوان للفرار، تم التعرف على راية الولايات المتحدة المرصعة بالنجوم.

ياسيدي كنت على صواب ، يقول المساعد لحميدو، إنهم أمريكيون !.

كنت أعلم ذلك مثلك ، يرد عليه الرايس حميدو ، لكن لم يكن من الممكن أن أفر في خجل أمام العدو الذي خرجت لمحاربته !.

وبعد أن أمر بالاستعداد للقتال ، قال بصفة خاصة ، لضابطه : عندما أكون ميتا ، أصدر أوامر بإلقائي في البحر ، ولا أريد أن يحصل الكفار على جثتي.

ولما اقتربت السفن من بعضها البعض ، اندلعت معركة غير متكافئة تماما بين مدفعيات الطرفين. لكن أجل الرايس حميدو كان قد حان . فأسقطته الرشقة الأولى التي أطلقها العدو وتركته جثة هامدة في مركزه القتالي. وتنفيذا لتعليماته ، ألقي بجثته في البحر.

بعد وفاة الرايس حميدو استمر القتال. لكن الفرقاطة الجزائرية سرعان ما تحولت إلى حطام بعد سقوط صواريها وخرقها بالمدافع وتعطيلها عن العمل ، إذ كانت الفرقاطات الأمريكية تمر، تباعا ، أمامها ، وتطلق كل واحدة منها رشقة من مدافعها عليها. وفي الأخير ، وبعد مرور ساعة من الزمن ، قطعت إحدى

كرات المدافع قرن صاري مؤخرة الفرقاطة وسقطت الراية في البحر. وتوقف إطلاق النار ، وتوجهت القوارب للاستيلاء على السفينة المهزومة ، وعند صعوده السفينة ، استحضر رئيس الفرقة الأمريكية القائد : هذا كل ما تبقى من حميدو ، يقول القائد ، مشيرا إلى بركة دموية : قليل من الدم.

هكذا كانت نهاية حميدو البطولية ، إن موت العزة هذا ، قد وفر عليه ألم تسليم هذه الفرقاطة للكفار، وهي الفرقاطة التي كان دائما يرفض تبديلها بالفرقاطات التي غنمها ، وجنبه حزن معايشة تعرض بلاده ، بعد مرور سنة واحدة ، للإذلال والإهانة.

مصدر النص المترجم:

Albert Delvoulx , Revue de l'Algérie et des colonies, Tome I, pp.826-40 et 48-58.

يمكن العودة إلى:

علي، تابليت .

1 - من أبطال البحرية الجزائرية: الرايس حميدو: 1770 -1815.جريدة "الشعب" في ثلاث حلقات. 11، 12 -13 و14 جوان 1987.

2 - صفحات مجهولة من تاريخ البحرية الجزائرية. الصحيفة، سبتمبر - أكتوبر، 6 حلقات. 1993.

3 - الرايس حميدو أميرال البحرية الجزائرية : 1770 -1815. ثالة 2006.

تحت الطبع:

محاضرة ألقيت في Manisa بتركيا، في 1 -3 ديسمبر 2016 بالإنجليزية حول الرايس حميدو. بعنوان: The Last Hero of the Algerian Navy : Raîs Hamidou

ترجمة : القبة - العاصمة . 27 ماي 2017م.